التفكير العقلى والروحى

للاستاذ عبد الرحمن سلامة العطار ـ المدرس بمعهد القاهرة الدينى

تطلع علينا الصحف كل يوم بأنباء جديدة عن الكواكب الصناعية والصواريخ العابرة للقارات ، وعن التنافس المسعور بين كل من روسيا وأمريكا فى هذا المضمار ، وما زلنا على ذكر من ذلك الصاروخ الذى أطلقه الروس أخيرا حاملا قمرا صناعيا قالوا عنه انه تخطى مدار القمر ، واتخذ مداره حول الشمس وأصبح كوكبا عاشرا .

ودفعت حمى التنافس أمريكا الى أن تطلق قمرها « **الرائد** » ليتخذ هو الآخر مداره بجوار أخيه الروسى . ولاندرى مايخبئه القدر غير أن المقطوع به أن العالم كله يضع يده على قلبه فرقا من الفناء ، والناس من خوف الموت فى موت ، فماذا يكون مصير البشرية لو جن جنون أحد المعسكرين فأطلق على الآخر شواظا من صواريخه ؟ لا ريب أن ذلك سيكون ايذانا بفناء البشرية ونهايتها .

ونحن لاننكر على هؤلاء وأولئك أن ينظروا فى ملكوت السموات والارض ، وما خلق الله من شىء وأن يبحثوا جادين فى أسرار الكون ، فان ديننا الحنيف يدعو الى هذا النظر ، ويحثنا على استجلاء الغامض من هذه الاسرار ، والانتفاع به ما وسعتنا الطاقة ، وما انتهى اليه الجهد ..

بيد أننا نرى أن التفكير العقلى واصل نشاطه فى هذا الاتجاه ، وكاد يصل الى أوجه ، وما زال يشب وثبات قوية نحو التعميق ، والاستقصاء وان كان منحرف الغاية ، ملتوى القصد **لان الدافع اليه ليس خير البشرية ورفاهيتها وانما ابادتها وافناؤها .**

بينما نرى التفكير الروحى مازال وئيد الخطى ، متعثر السير ، متخلفا عن ركب العلم والناس يتلفتون الى ما يسعد نفوسهم فلا يجدون ، فقلوبهم واجفة ، ونفوسهم حائرة ، ذلك أن المادة بجميع أنواعها ، وصورها لم تستطع أن تبعث السرور فى النفوس أو تزجى القرار الى القلوب كما أنها عجزت ، أن تنتزع منها الحقد الكامن ، والقلق الدفين وعلماء الاديان عزلوا عن الناس ، وشغلوا بأنفسهم عن اسعاد البشرية ، وغرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور .

ولا ضير على التفكير العقلى أن يحلق فى الآفاق باحثا ومنقبا ما دام فى ذلك خير البشرية وهناءتها .

غير أن الذى يجب أن يعنى به العلماء أولا وقبل كل شىء هو أن يسير

التفكير الروحى جنبا الى جنب مع التفكير العقلى ليهذب من شططه ، ويحد من غلوائه ، ويحيل مخترعاته الى الخير الصرف ، والسعادة المحضة حتى لاينقلب التفكير العقلى الى فوضى شاملة ، وتحلل مخيف ، يبعث فى النفوس القلق ، والحيرة ، والاضطراب النفسى كما هو شأنه الآن !

لقد شغف الناس بالمادة حتى استولت على كل مشاعرهم ، وقلبوا من أجلها مقاييس الاخلاق التى رسمتها الشرائع السماوية ، واحتفظت بها الانسانية كأعز ما أفادته من تراث .

فالنفاق المقيت أصبح فى عرف العصر دهاء وحنكة ، والنطق بالحق أضحى بلاهة وسذاجة والنداء بالدين صار رجعية وتأخرا ، والناصح الواعظ بعد عن الناس وبعد الناس عنه حتى أصبح فى قومه كمن ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء . ومن هنا ظهرت دعوات الحادية ، وآراء مقوضة لها أنصار يدعون اليها فى الصحف علنا وفى غير استحياء حتى سمعنا من بعض كتاب الصحف عقب ظهور الصواريخ ، والكواكب الصناعية أن عصر الأديان قد ولى الى غير رجعة . وعلى الناس أن يشغلوا أنفسهم بمطالب الحياة ، وبما يوفر لهم أسبابها ، ولا عليهم بعد ذلك أن يدعوا الدين للديان ..

وعندى أن علاج هذه الفوضى الماحقة ، النازلة بالاخلاق الى مستوى وضيع كامن فى التدين العملى ، والقدوة الحسنة والعودة الى التصوف الاسلامى ففيه غذاء للأرواح ، ومتاع للنفوس وكتبه منهل عذب ، ومعين بالخير فياض .

والاحكام الفقهية المشحونة بألوان الجدل العقيم لاتفيد معرفتها شيئا الا اذا بعثت على العمل ، ودفعت بصاحبها الى الهدى والرشاد ولسنا فى حاجة الى كثير من العلم ، ولكنا فى حاجة الى كثير من الاخلاق !
والانسان بالروح لا بالجسم انسان !

لقد جعل الله الغاية من خلق الانسان عبادته ومعرفته « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون** » ، وفى حديث قدسى « **كنت كنزا مستورا فخلقت الخلق لأعرف** » .

فاذا كانت هذه هى الغاية من الدنيا فلم الشراهة فى طلبها ؟ وعلام يتحاسد الناس ، ويتباغضون ويكيد بعضهم لبعض . ؟

ومن لى بمن يفهم الناس أن الدنيا بجميع ماحوت من زخرف ومتاع لاتستطيع أن تبعث السرور فى النفوس ، ولا أن تضىء القلوب باشراق الله فكثير من ذوى الثراء الواسع والجاه العريض أقدم على الانتحار راكلا بقدميه

ثراءه وجاهه فارا من الضيق النفسى الذى أظلم عليه حياته ، وحمله على التخلص منها لا يلوى على شيء !

ولست أرى السعادة جمع مال ولـكن التقى هو السـعيد

والاطمئنان النفسى هو أسمى معانى السعادة عند الانسان ، فاذا حظى به استوى عنده ذهب الدنيا وحجرها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبه أبى ذر الغفارى رضى الله عنه كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت مؤمنا فقال له الرسول : ان لكل حق حقيقة فما حقيقة ايمانك قال أبو ذر : استوى عندى ذهبها وحجرها فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ما معناه « الآن عرفت طريق الايمان » .

ان الانسان اذا رزق السعادة فى نفسه ، والاطمئنان فى قلبه استوى عنده نعيم الحياة وبؤسها . وعاش فيها سيد نفسه يملكها ولا تملكه ، ويسخرها لغاياته من غير أن يذل أو يشقى !

على أن الله وعد المؤمنين ان ساروا على النهج الالهى وعملوا الصالحات بالاستخلاف فى الارض والتمكين لهم فى دينهم ، والنصر على أعدائهم والله لايخلف الميعاد .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا » .

ورمضان فرصة مواتية للانابة الى الله ، وتطهير النفوس مما شابها من درن المادة وغشيها من نوازع الشيطان والسعيد من يهتبل الفرصة ، للعودة الى الخالق ، وغسل ذنوبه بالتوبة النصوح ، وهو واجد لا محالة يدا حانية تربت عليه ، ورحمة سابغة تفتح جناحيها لاستقباله ، ولله أفرح بتوبة العبد من المضل الواجد ، والظمآن الوارد ، والعقيم الوالد . مد الله لى ولكم حبال طاعته ، وقربنا من ساحة عزه ، وسلطانه ، وجعلنا من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

عبد الرحمن سلامة العطار
المدرس بمعهد القاهرة الدينى